طقوس المطر في الجزيرة السورية

أحمد الحسين

الماء أساس الحياة وسرّ الخصب، ولا يمكن أن تنشأ حياة بدون المياه • قال تعالى : « وجعلنا من الماء كلّ شيء حي »(١) وفي الأمثال الشعبية الدارجة يقال : « درب المي أخضر » اشارة الى الخصب والنمو •

وتؤكد نتائج الدراسات الأثرية • والأبحاث التاريخية أن الحضارات البشرية نشأت على ضفاف الأنهار والبحيرات(٢) • واذا كان الماء قد ساعد الى حد كبير على نشوء تلك الحضارات فان الجفاف كان الى جانب بعض العوامل الأخرى قد أدّى الى زوالها وانقراضها من الوجود •

ولهذا كانت حاجة الانسان والحيوان والنبات الى الماء ضرورية ، ولا غنى عنها ، فلا غرابة اذا وجدنا تراث الشعوب القديمة منها والمعاصرة ، يزخر بطقوس المطر ، سواء في الثقافات الشفوية أم المكتوبة •

وتروي لنا مارجريت مري : أن بعض الحركات الراقصة التي يقوم بها الأطفال الأوربيون يبدو فيها بوضوح أنها استمرار لرقصات الخصب القديمة • وقد قدمت وصفاً لنوع من الرقص قالت: « إنه كان شائعاً حتى وقت قريب ، ورجّحت أنه استمرار لتعويذة المطر ، وفيه يظهر تقليد صوت العاصفة الرعدية ، ويسمى أيضاً برقص العاصفة »(٣) •

ونستقي وصفاً آخر لطقوس المطر، واحتفالات استقباله في ساحل العاج ، وذلك وفق السياق التالي : إذ تقول : «كانت هنالك حفلة كبرى للرقص في هذه

الليلة لأن أمطار الموسم قد أقبلت • وكانت العاصفة قد هبّت قبل منتصف الليل ، وكان القمر ما يزال كاملاً تقريباً ، ولكنه كان محجّباً وراء السحب • وكانت مجموعة الراقصين تتألف من حوالي العشرين من الشباب عرايا إلاّ من الضروري • وقد علقوا في أيديهم أجراساً ••• بدأ الرقص ولم يمضِ قليل حتى أخذ المشاهدون ينضمون إلى حلقة الرقص شيئاً فشيئاً • تقدّم الرجال المسنّون أولاً ، ثم النساء المسنّات ، ثم الشابات من النساء ، وأخيراً الصبية الذين كانوا يستطيعون المشي بصعوبة غير أنهم كانوا قادرين على الرقص في إيقاع متقن • وبعد فترة من الزمن أصبح الراقصون أكثر انتشاءً وأخذت خطواتهم تزداد تعقيداً •

بعد ذلك أخذ جماعة من المسنين الذين يرتدون أزياء غريبة في العودة إلى وسط الحلقة • وكانوا يقبضون بأيديهم على الصنوج، وفي أفواههم نايات مختلفة ثم أخذوا يؤدّون نوعاً من الرقص الصامت [المقلِّد] يمثل أوضاعاً معينةً للطيور والوحوش المختلفة •

وكان كلّ واحد منهم يمثل برقصاته حيواناً بعينه • ويصفِر صفيرَه ، ويستمر الرقص وطقوسه المختلفة حتى تأخذ العاصفة بالاقتراب ، وحينئذٍ يرتفع صياح الراقصين وفجأة تسقط أول قطرة من المطر • وعندئذ نجد الراقصين يخترقون الحلقة ، ويعدون نحو الطبول ، وبعد ذلك يعود الجميع إلى القرية »(٤) •

نار الاستسقاء :

وفي تراث العرب الجاهليين نجد طقساً غريباً للمطر يُعرف بنار الاستسقاء ، يقول الجاحظ عنها : « ونار أخرى، وهي النار التي كانوا يستمطرون بها في الجاهلية الأولى • فانهم كانوا إذا تتابعت عليهم الأزمات ، وركد عليهم البلاء ، واشتدّ الجدب واحتاجوا إلى الاستمطار • اجتمعوا ، وجمعوا ما قدروا عليه من البقر ، ثم عقدوا في أذنابها ، وبين عراقيبها السَّلع ، والعُشَر • ثم صعدوا بها في جبل وعر ، وأشعلوا فيها النيران • وضجّوا بالدعاء ، والتضرّع • فكان يرون أنّ ذلك من أسباب السُقيا. ولذلك قال أميّة(٥) :

سنــة اَزْمــــة" تخيــّــلُ بالنــا   سِ ترى للعِضــاهِ فيها صريرا
اِذ يسفــّــون بالدَّقيق وكانــوا   قبــلُ لا يأكلــون شيئــاً فطــيرا
ويسوقــون باقــراً يطــردُ السَّهــلَ   مهازيلَ خشيــةً أن يبــورا
عاقدين النّيرانَ في شكُرِ الأذ   نــابِ عمداً كيما تهيجُ البحورا
فاشتــوت كلــّهــا فهاج عليهــم   ثم هاجت إلى صَبيــرٍ ، صَبــيرا
فرآهــا الالــهُ تــرْشِمُ بالقطـــــــرِ ، وأمسى جَنابُهــم ممطورا

طقوس المطـر في الجزيــرة :

والجزيرة في المعاجم الجغرافية تشمل الأرض الممتدة ما بين دجلة والفرات. وتسمى الجزيــرة الفراتية . ويُطلق عليها جزيــرة أقُور(٦) . ونحن هنــا لا نريد الجزيرة عامة وإنما نقصر مساحةالموضوع في الجزيرة السورية . فنرصد طقــوس المطــر كما سجلتهــا الذاكــرة الشعبيــة ، واحتفلت بهــا الأجيــال إلى عهد قريب ، خاصــة عندمــا كانت الزراعة تعتمد على مياه الأمطار . قبل التوسّع في مشاريع الري ، والســدود ،وحفر الآبار الجوفية(٧) . حيث سنصف تلــك الطقوس ، ونحــاول الكشف عنرموزها، التي تقودنا إلى مشارف طقوس الخصب القديمة التي عرفتها حضارات بـلاد ما بــين النهريــن ، من سومرية ، وأكادية . وبابلية ، وغيرها .

وهذه الطقوس قد تكون للنساء ، وبعضها الآخر للرجال . ويشارك فيهــا الأطفال كذلك . وتظهر في بعضها المؤثرات الرمزية ،والايحائية ، والأسطورية ولكن في إطــار مسحــة دينيــة . وقد تتفاعل هــذه المؤثــرات ، وتتداخــل في بناء تلك الطقوس كما سنرى في الجوانبالآتية :

أم الغيــث :

ويُعدُّ من أشهر طقوس المطر ، وهو طقس أنثوي ، تقــوم بــه النساء ، ويجمع بين الغناء والرقص . ويمتد أثره إلىبلاد الشام وفلسطينوالعراق(٨) .

وبداية هذا الطقس أن الرجال يطلبون من النساء إقامة طقس أم الغيث، عندما يطول انقطاع المطر • فتقوم الفتيات بتجهيز هيكل أم الغيث ، وهو عبارة عن مغرفة طعام من خشب ، تثبّت عليها من جهة الأعلى قطعة خشبية بمثابة الكتف واليدين • ثم يكسى هذا الهيكل بثياب الفتيات ، ويزيّن بالحلي الذهبية، والفضية • ويغطى الوجه بقطعة من القماش تسمى « هبرية » فتبدو أم الغيث عندئذ في هيئة فتاة ، بكامل لباسها ، وزينتها •

بعد ذلك تبدأ المرحلة الثانية ، حيث ترفع فتاة هيكل أم الغيث ، وتطوف به من بيت إلى آخر ، ومن ورائها موكب الفتيات ، والأطفال الصغار ، وهم يردّدون مقاطع من أنشودة أم الغيث بحركات راقصة •

ويقف الموكب أمام كل بيت ، فترش ربة البيت الماء على المحتفلات ثم تعطيهنّ شيئاً من القمح أو العدس • وهكذا ينطلق الموكب من جديد إلى بيت آخر ، حتى الانتهاء من زيارة البيوت كافة •

وهنا يدخل الطقس في المرحلة الثالثة ، حين يجتمع الموكب في ساحة ، وتظل أم الغيث مرفوعة ، وتطبخ الحبوب في قدر ، ثم توزع ، وتؤكل كصدقة أو قربان ، ويسود عندئذ جو من الاستبشار ، ولا يغادر الحاضرون المكان إلى ساعة متأخرة انتظاراً للمطر • فان هطل الغيث انصرفوا إلى منازلهم ، وإلاّ جرت إعادة مشهد أم الغيث مرة ، ومرات حتى يستجيب الله لدعوات الصغار وتوسلاتهم •

وأنشودة أم الغيث تبدأ باستهلال دعائي ، تليه مقاطع في وصف الجدب واليباس ، ومن ثم الدّعاء ، والرجاء بهطل المطر ثم يختم الغناء بدعوة ربات البيوت إلى البذل والعطاء وذلك وفق ما يلي(٩) :

أمّ الغيثْ يا ريّه
عبّي الحوايه ميّه
أمّ الغيث زعلانه
تجيب المطر من عانه
يلّله مطر يلّله طين
تا تشبع الحواوين
تاتشبع أم خنينه
وتكثرته هالدهينه

والتعطي بالطبشي
صبّحْ ولدها يمشي
والتعطي بالطاسه
أم حجول الردّاسه
والتعطي بالغربال
صبّح ولدها خيال
والتعطي بالحفنه
جوّا القاع مندفنه

إن تحليل هذا المشهد يضعنا أمام تساؤلات كثيرة ، والسؤال الأساسي يتمحور حول أم الغيث • فمن هي ؟ والواقع أننا لا نجد إجابة لدى أجيال الآباء والأمهات ، والأجداد والجدّات ، فهؤلاء كانوا يمارسون هذا الطقس لاعتقادهم أنه يجلب المطر دون معرفةالمقصود بأم الغيث •

وللاجابة عن هذا السؤال نجد أنفسنا بحاجة إلى الاتكاء على الموروث الأسطوري وقراءة طقوس الخصب القديمة التي كانت منتشرة في بلاد ما بين الرافدين •

ولأن الطقس ذو طبيعة أنثوية ، فان الافتراض الأولي لطبيعة أم الغيث أنها من ربّات الخصب(١٠) حيث يمكن القول : إن أم الغيث تمثل « أنانا » السومرية أو عشتار البابلية ، ولكن فيصورة غامضة ، بعيدة الحضور في الذهن. ولا شك عندئذ أن هذا الطقس استمرارلطقوس الخصب القديمة ، وأن دلالته المباشرة قد ضاعت ، ولكنّ وظيفته ظلتمتوارثة في هذه البيئة •

ومما يؤيد هذا الاعتقاد أنالمرأة شكلت ركيزة أساسية في طقوس الخصب لدى مختلف الشعوب والحضارات • حيث يتحدث علماء الأساطير ، والانتربولوجيا عن تصورات للقوة الالهية ، في شكل وماهية أنثوية • هي الأم الكبرى للكون ، وذلك في العصر الباليوليتي الأعلى (٣٠٠٠٠ ـ ١٠٠٠٠)ق٠م •

«والديانة الباليوليتية ، ديانة زراعية في اعتقادها ، وطقسها ، والأسطورة الأولى هي أسطورة زراعية تتركز حولإلهة واحدة هي سيدة الطبيعة »(١١) وذلك في مرحلة ما قبل بزوغ الكتابة ،ونشوء المدن • وقد عُرفت الأم الكبرى بأسماء كثيرة في الحضارات المتعاقبة ،فهي على سبيل المثال(١٢) : نمو ، وأنانا السومريّتان ، وعشتار البابلية ، وعناة الكنعانية ، وعشتروت الفينيقية وايزيس المصرية ، وأفروديت الاغريقية • وفي هذا المعنى يقول الباحث فراس السواح : « لم يتم بالفعل تحطيم صورة الأم الكبرى ، وتشتيتها إلى صور مختلفة تحت أسماء متعددة إلاّ على النطاق الديني الرسمي • لأن صورتها الأولى كأم واحدة للكون والبشر قد استمرت في الضمير الشعبي ، واستمرت معتقداتها وطقوسها وعباداتها قائمة إلى جانب العبادات الرسمية • ثم تحوّلت في الفترات المتأخرة إلى عبادات سرية ،تمارس في الخفاء »(١٣) •

هــذا التفسـيـر الأسطــوري ربما يجعلنا ندرك طبيعة طقس أم الغيث ، وإلا فما معنى أن يرفع هيكلها ، ويتم التوجّــه إليهــا بالغنــاء الــذي يذكّر بالترانيم التي كانت ترفع إلى عشتــار أو ايزيس[١٤] .

وأداء هذا الطقس لا يفترض معرفــة كل هذه الدلالات في أذهــان الذين يقومون به . فهذا أمر لا مجال لطرحه في ظل التطورات الفكرية والدينية التي تعاقبت منذ آلاف السنين ، ولكن صدى ذلك الماضي ظلّ ينبعث بشكل غير مدرك في وعينا الحاضر وليس في طقس المطر وحده تظهر المرأة ، ففي طقوس الحصاد لدى بعض الشعوب تكسى آخر حزمة من القمح « رداء أبيض ، وتزيّن بأشرطة ملونة ، وتعلّق في عمود لأنها تمثل ملكة الحصاد »[١٥] .

وهذا ما يؤكد أن بنية طقس أم الغيث تحمــل موروثات أسطوريــة تسرّبت الى الذاكرة الشعبية ، بعد أن لامسته مؤثــرات توحيدية يكون الدعاء فيها الى الله أن يرحــم الناس والحيوانات فيرسل لهم المطر . وهكذا نلمح تواشجاً فكرياً عميقاً في مضمون هــذا الطقس المطري يكشف عن فاعلية الماضي ، وتأثيره في الحاضر .

وإذا تجاوزنا هذه النقطة إلى ظاهرة « رشّ الماء » فاننا نعلّل ذلك بالتفاؤل ولكن هذا التعليل لا يفسر هذه الظاهرة تماماً . ومرة أخرى نلوذ بالميثولوجيــا الأسطورية في تفكيك بعض الدلالات ، والمشاهد التي تبدو غير ذات معنى .

فقد كان ج فرايزر يدرج مثل هذه المواقف في إطــار ما يعــرف بالسحــر التعاطفي إذ « يفترض إمكانية تأثير الأشياء بعضها في بعض من بعيد عن طريق نوع من التعاطف الخفي »[١٦] الذي هو أقرب مايكون إلى التأثير الرمزي المتبادل. وكما أن ربة البيت ترش الماء على الموكب ، فان أم الغيث هي الأخرى في إطار تبادل الأدوار سترسل المطر في نطاق علاقة تحريضية ــ اتصالية رمزية .

ولعلّ مما يضفي جواً رمزيا خاصاً على طقس أم الغيث ، طبيعة الترنيمة، وكلماتها والزمن الذي يمتد فيه الخطاب . وهو زمن يتصل الماضي في الحاضــر بمجراه دون انقطاع . إذ تنتقــل الترنيمة من الماضي بدلالته على الجدب إلى المستقبل بدلالته على الخصب ، وكأن الاستجابة قد تحقّقت . فالراعي لم يزرع منذ سنتين بسبب انحباس المطر ثم فجأة نصبح في رحــاب المستقبل حيث القمح

ينمو ، ويرتفع إلى علو الأبواب • وهذا الانتقال غير الواقعي لا يكون في الزمن العادي ، ولكنه ممكن عند استخدام الرُّقى ، والتعاويذ •

أما المضمون الاجتماعي لأم الغيث فهو يكشف عن نمط انتاج رعوي ـ زراعي حيث يكون الراعي مزارعاً • وهكذا نجد التعايش بين نمطين اقتصاديين كانا متضادين على أن ما تجدر الاشارةإليه أن طقس أم الغيث ينتهي بتقديم الصدقة أو القربان وهو قربان زراعيمن الحبوب ، وليس من الذبائح كما سنجد لاحقاً • ورغم ذلك فهذا الطقس منذ بدايته وحتى نهايته يسير موازياً لطقوس الخصب القديمة التي تنتهي عادةبعد الترانيم والرقصات والتوسلات بتقديم الطعام حيث يتم القبول ، وينبعث في النفوس الشعور بالأمل والاطمئنان •

حُورة النساء :

والحورة طقس نسائي آخر تؤديه المرأة إذا طال انحباس المطر • والحورة بالأساس لعبة للرجال،ولا يجوز أن تمارسها النسوة إلا في وقت طلب الاستمطار .

وأقرب وصف للحورة أنها تشبه لعبة الهوكي من بعض الجوانب ، وهي تقوم عادة بين أفراد عشيرتين ، ووقتهايمتد من الظهر إلى المساء • وميدانها واسع يشمل الأرض الممتدة ما بين مضارب القبيلتين ، وتنتهي اللعبة عندما يتمكن أحد الفريقين من الوصول إلىمنازل الفريق الآخر • وذلك يعني الفوز والحصول على الجائزة المحددة •

وغالباً ما يكون اللعب في فصلي الشتاء والخريف •

وتوحي طبيعة هذه اللعبة أنها طقس احتفالي لاستقبال المطر،حيث يتوقف الرجال عن اللعب عندما ينقطع المطر ، ويطلبون منالنساء القيام بها ، فتلعبها النساء بالأيدي لا بالعصي كالرجال • وعندما تبلغ النساء منزل أحد الرجال المشهود لهم بالكرم أو الشجاعة يضعن كرة اللعب في اناءماء ، أو يسفحن دلال قهوته في اشارة مباشرة أو غير مباشرة الى الحاجة الى الماء والمطر •

وفي مألوف العادة يذبح صاحب البيت ذبيحة تطبخ ، وتؤكل كجزء من ممارسة هذا الطقس المطري •

ومن الواضح أن دور المـرأة هنا ينطلق من إدراك طبيعة الخصب الأنثوية. فالرجل على سبيل المثال لا يسمح للمرأة بهذه اللعبة إلاّ في ظرف صعب ، فهو يلجأ إليها في المواقف المحرجة التي يصرف النظر فيها عن مخالفة المعهود، ونظام العادات والتقاليد • وهذا التساهل مرده إلى بعض الاعتـراف بدور المـرأة ، وقدراتها المبهمة •

ويلاحظ أن عملية سفح القهوة على الأرض أو وضع كرة اللعب الخشبية في وعاء الماء ذات دلالة رمزية ، تحريضية لاستجلاب المطر •

ويبقى السؤال لماذا تتجه النساء في هذه اللعبة إلى بيت رجل كريم أو شجاع دون سائر الرجال ؟

إن تفسير ذلك يرجع بنا إلى ظاهرة قديمة ، عرفها العرب من قبل ، وهي ظاهرة استسقاء المطر بوجه إنسان كريم وفاضل فقيل :(١٧)

وأبيض يُستسقى الغمامُ بوجهه　　ثمال اليتامى ، عصمةٌ للأراملِ

طقس صَلْب العدّة :

وهو مشهد للرجال ، يشير على نحو خفي إلى فكـرة التضحيـة ، والمـوت والانبعاث ، فالصلب معـروف في الحضارات القديمة على أنه ضرب من التضحية أو الفداء ، وهو يقترب من ظاهرة القرابين البشرية التي كانت تقام للخصب والمطـر •

وينظر إليه كطقس زراعي• فالعدة : هي آلة الفلاحة ، وتتألف من سيف خشبي ينتهي من الأعلى بمقبض للتوجيه، والقيادة • وينتهي من الأسفل بذراع قصير ، أو بلسان خشبي تُركّب عليه السكة الحديدية للحراثة • ومن لوازم العدّة هنالك : الواصل والنير ، وبعض الأدوات الأخرى •

وفكرة أداء هذا الطقس ذات دلالة رمزيـة أيضـاً إذ يقوم الفلاح بربط السكـة مقلوبـة نحو الأسفـل وتبقى متأرجحـة في الهـواء على هيئة الانسان المشنوق ، وتظل كذلك حتى يهطل المطر، وتنتهي هـذه العمليـة بفكّ العدة ، وإنزالها إلى الأرض •

وفي تفسير دلالة هذا الطقس يمكن القول: إن الناس تنظر إلى انحباس المطر على أنه عقوبة لخطيئة يرتكبها الانسان• ومنذ القديم ترسّخ الاعتقاد بضرورة التكفير عن الخطيئة « بالصلاة ،والتضحية، وبدأت التضحية عند الآريين بالضحايا البشرية ، ثم حلّ الحيوان محل الانسان، فصار يضحّى بأولى ثمرات القطعان ، وباكورة الطعام الذي تنتجه الحقول ثم انتهى الأمر أخيراً بالاكتفاء بالتسبيح ، والثناء على الله »(١٨) •

ويبدو أن الاعتقاد بتقديم ضحايا بشرية للخصب والمطر كان من الأمور الشائعة في أكثر الثقافات والحضارات البشرية قبل ظهور الديانات التوحيدية ، ونستطيع العثور على مثل هذا الاعتقاد ، والطقس لدى الكثير من الثقافات التي تعتبر الملك تجسيداً لاله الخصب ، ومركزاً لنظام الطبيعة • يتوقف عليه هطل المطر ، وخصب الأرض ، وتكاثر الحيوان ، وتتابع الفصول(١٩) •

وعلى هذا الأساس يمكن الافتراض دون جزم أن شنق العدة ما هو إلا استعادة خفيّة لطقوس القرابين ، والتضحيات البشرية • بعد أن طرأت تعديلات عميقة ، وتبدلات جوهرية في بنية هذا الطقس ، فصار يكتفى بجزء من الضحية البشرية أو بما يرمز إليها وعدّة الفلاحة جزء من شخصية الفلاح، يستحيل بدونها أن يزرع أو يحرث ويبذر فالطقس عندئذ تضحية رمزية بالفلاح نفسه • وغالباً ما يقوم تواصل انفعالي بين الفلاح والعدّة المصلوبة حيث يظل مضطرباً • وقلقاً ، ما دامت العدّة معلقة في الهواء •

وعندما يسقط المطر تجده يهب فرحاً فينزلها ، ويحفظها في مكان مناسب • وبذلك يتحقّق طقس التضحية الذي بقيت ظلاله الواهية حيّة في الممارسات الشعبية العفوية ، دون وعي أو إدراك•

قرابين المطر :

ولعلّنا لا نضيف جديداً عندما نتحدث عن ظاهرة القربان ، وتحوّلاتها في الفكر الانساني على مدى العصور ، ومايهمّنا في هذا المجال أن تقديم القرابين من بين طقوس المطر التي ما تزال معروفة في الجزيرة • فهي امتداد آخر لتلك الطقوس القديمة •

وللقربان وظائف مختلفة ، أشارت إليها الدراسات الانتربولوجية • ولعلّ من أقدم ما يذكر في هذا السياق قصة قربان هابيل وقابيل إذ جاء في القرآن « واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق • إذقرّبا قرباناً ، فتقبّل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر • قال : لأقتلنّك • قال:إنما يتقبّل الله من المتقين »[٢٠] •

وطقس القربان المطري في الجزيرة مبسط الأداء • إذ يقوم رجل تقي بنحر ذبيحة ثم يرفع رأسها على عصا ، ويطوف بها ماشياً أو راكباً فرساً ، وهو ينادي :

« قربان قربان

قربان لوجه الله • والعمل الصالح

قربان يدفع القضا والبلا »

فيبادر الآخرون إلى تلبية النداء ،وينحر كل شخص ذبيحة كقربان لوجه الله ، والذي لا يملك دابة ينحر بعض الطيور ، والمهم في ذلك هو « إراقة الدم » إشارة إلى دم الضحية القربانية الذي تُعلّم به الأبواب ، والنوافذ أحياناً •

وإذا كانت القرابين تقدّم في الحضارات القديمة للآلهة المتعددة[٢١] • فأن هذا الطقس اتخذ مساراً توحيدياً ، فاقتصر تقديه لله وحده • توسلاً ،وتضرعاً لدفع الأذى وجلب المطر ، وتجديد الآمال في النفوس •

صلاة الاستسقاء :

وهي طقس ديني شائع التداول في المدن والأرياف • كما أنّ هذا الطقس معروف في الديانات التوحيدية ، وقد يشارك أبناء أكثر من طائفة في أدائه طلباً للرأفة ، والاغاثة •

وصلاة الاستسقاء شرعاً هي : «طلب سقي العباد من الله تعالى عند حاجتهم إلى الماء »[٢٢] • ويطلب من المسلمين أداء ذلك إذا احتاج الناس إلى الماء •

وكان الرسول (ص) صلّى بالمسلمين صلاة الاستسقاء ، ودعا قائلاً : « اللهمّ اجعلها رحمة ، لا سُقيا عذاب ، ولا محق ، ولا بلاء ، ولا هدم ولا غرق . اللهمّ على الزراب ومنابت الشجر ، وبطون الأودية . اللهمّ حوالينا ، ولا علينا . اللهمّ أسقنا الغيث غيثاً مغيثاً هنيئاً ، مريئاً ، مريعاً ، سَحّاً على الأرض عاماً ، غَدَقاً طيعاً »(٢٣) .

وفي كتب الفقه تبيان كيفية أداء صلاة الاستسقاء ، والخروج بالناس صغاراً وكباراً إلى ظاهر البلد ، ومما يشترط في ذلك أن يلبس المصلون أرديتهم بالمقلوب ثم يدعون ، متوسلين ، متضرعين .

وإذا كان هذا الطقس قد شاع في المدن لوجود المساجد فيها ، ولوجود الأئمة والفقهاء الذين يخرجون بالناس لأداء صلاة الاستسقاء ، فان هذا الطقس كان محدود الانتشار في الأرياف والبوادي .

وحين كان أهل البادية يؤدون ذلك فانهم كانوا يسوقون أمامهم البهائم وقد عزلوا صغارها عنها ، فتعلو أصواتها ، إشارة إلى طلب الرحمة ، والغوث . ثم يرفعون أيديهم بالدعاء قائلين : اللهم ارحمنا وأغثنا ، إن لم يكن لكبارنا ، فليكن لصغارنا ، اللهم ارحمنا رأفة بالأطفال الرضع ، والدواب الرّتع .. نسألك الغيث يا أرحم الراحمين » .

وقد كان من عادة العرب في الجاهلية الخروج إلى طلب الاستسقاء وفي الخبر « أن أهل مكة أصابهم قحط ، فخرج أبوطالب ، ومعه غلام كأنه شمس ، وحوله أغيلمة فأخذه أبو طالب ، وألصق ظهره بالكعبة ، ولاذ الغلام باصبعه ، وما في السماء قزعة ، فأقبل السحاب من هنا ، وههنا ، واغدودق ، وانفجر له الوادي »(٢٤) .

فهذا الطقس كما يبدو قد يشكّل النواة المبكرة لصلاة الاستسقاء . ومانشأ من حولها من فنون كرقص السماح ، وأغنية « اسق العطاش »(٢٥) وهذا فن معروف ومشهور على أن مناسبته الأساسية هي طلب السُقيا .

طقوس الأطفال :

بقي أن نذكر في هذا السياق مشاركات الأطفال في طقوس المطر كما مرّ بنا في أم الغيث ، وطلب السقيا . وإلى جانب ذلك تبرز أغاني الأطفال ، وأهازيجهم

التي يستقبلون بها المطر ، إذ يخرجون راكضين ، معرضين أجسادهم لقطرات المطر وهم ينشدون[٢٦] :

يا مطر يا عاسي   يا مطر يا عاسي   طوّل شعر راسي

ثم ينوّعون في المقاطع ، ويتمنّون أشياء كثيرة ، كما أنهم يستقبلون الشمس إذ تشرق بعد المطر بأهزوجة يقولون فيها[٢٧] :

طلعت الشميسه
على قرعة عويسه
عويسه بالمدينه
ياكل حبه وتينه
قرقعة رحّاها
جفّلت معزاها
قام الشويب يصلّي
على قرعة مولي

وكان مظهر قوس قزح يثير في نفوسهم مشاعر من الفرح والخوف معاً ، وهم يرون أن اللون الأحمر من أطيافه يرمز إلى الشر ، والشيطان والجحيم[٢٨] ، في حين يرمز اللون الأخضر إلى الخير ، والملائكة ، والجنة ٠

وهذا الاعتقاد ليس بعيداً أبداً عن أساطير العرب القدماء الذين كانوا يعتقدون أن « قُزح هو إله الرعد والبرق ، والمطر ، ومن ثم إله الحرب[٢٩] ، ثم أصبح قزح في عصر الأديان رمزاً للشيطان على نحو ما رأينا في تصورات الأطفال وأناشيدهم ٠

◍ طقوس قطع المطر :

وكما يكون المطر رحمة نافعة إذا نزل بمقدار ، وفي وقت معين ، فانه سيصبح نقمة في حالات يقدّرها الناس ٠ وعندئذ يلجأ أهل البوادي ، والأرياف إلى الدعاء ، والقرابين طلباً للرحمة ، ولكن هذه المرة بايقاف المطر ٠ ومما يقولون أثناء قربان قطع المطر : « اللهم ارحمنا ، وارفع الغيث ، والبلاء عنا ، اللهم ارفع الغيث يا من ترسل الغيث » ٠

وهنالك طقس آخر يدعى « الحباس» من الحبس والانقطاع • حين يدفن فلاح محراثه أو فأسه في الأرض ،ويصيح« احباس ، احباس » فيرد عليه شخص ثانٍ « احباس ، احباس » ثم يردّدان عبارات تفيد معنى التوقف ، والكف عن المطر ، فيقول أحدهم : « احباس عشرة أيام » ويرد الثاني موافقاً « احباس عشرة أيام » •

وهكذا يتم هذا الطقس في أجواء رمزية وسحرية ، وخاصة في عملية «طمر المحراث » وما يصاحبها من عبارات كلامية توحي بالمقصود •

ويشارك الأطفال في طقوس انحباس المطر ، ويكون ذلك عندما يخرجون من بيوتهم وهم يصيحون : « عرعر يا ربي عرعر ، وأنا بكر أمي وأبويه ••• عرعر يا ربي عرعر » •

الخاتمة :

ومما سبق يمكن القول : إن طقوس المطر في الجزيرة السورية حملت كثيراً من رموز طقوس الخصب التي عرفتها ثقافات بلاد الهلال الخصيب ، وظلت هذه الرموز تظهر هنا وهناك في الممارسة، والأداء دون أن يفطن الناس إلى أصولها ، ومنابعها اكتفاء بوظيفتها التأثرية •

وقد حملت تلك الطقوس صبغة دينية توحيدية مما جعل الاحتفاظ بها في الحياة الاجتماعية لا يتعارض ومبادىء الأديان السماوية • إذ نجد الطقس المطري يحتفظ بجوانب من الموروثات الأسطورية القديمة التي تفاعلت مع المؤثرات الدينية اللاحقة في الوجدان الشعبي ، والذاكرة الشعبية •

ان طقوس المطر تشكل جزءاً من الموروثات الشعبية ذات الدلالات الغنية والهامة • ولكن ما يؤسف له أن الكثير من مادة هذه الطقوس اندثر ، وضاع مع مرور الأيام ولا سيما بعد التطورات التقنية التي برزت في جوانب الحياة عامة •

فهل نبادر الى جمع ما تبقى عالقاً في ذاكرة الأجيال ، ونقوم بتدوين ذلك التراث وتحليله أم أننا نريد أن تصبح أجيالنا القادمة محرومة من تراثها ، وتعيش حياتها في ظل التقنية الآلية بلا ذاكرة ، ودون جذور ؟

□ الهـوامش والاحـالات :

١ ـ القرآن الكريم : سورة الأنبياء ، الآية ٣٠ ٠

٢ ـ عن دور المياه في نشوء الحضارات يمكن الرجوع الى المصادر التاليـة :
ـ سومر وأكاد : للدكتور وديع بشور ، دمشق ١٩٨١ ، ص ١١ـ١٦ ٠

ـ الجديد حـول الشرق القـديم : مجموعة مـن الباحثين الروس : ترجمة جابر أبي جابر ، وخيري الضامن ، نشر دار التقدم ، موسكو ، ص ٥٨ـ٨٤ ٠

ـ فجر الحضارة في الشرق الأدنى : هنري فرانكفورت : ترجمة ميخائيل خوري ، ص ٣٧ـ٦٠ ٠

٣ ـ الفلكلور ما هو ؟ فوزي العنتيل : نشـر دار المعارف بمصر ١٩٦٥ ، ص ١٤٨ ٠

٤ ـ المصدر السابق ، ص ١٤٩ ٠

٥ ـ الحيوان : الجاحظ ، تحقيق محمد عبدالسلام هارون ، نشر دار الكتاب العربي ، بيروت ٤/٤٦٦ ٠ وكذلك ثمـار القلوب في المضـاف والمنسوب : الثعالبي ، تحقيـق محمد أبو الفضل ابراهيم ، نشر دار نهضة مصر ١٩٦٥ ، ص ٥٧٩ ٠

وازمة : شديدة ٠ السلع والعشر : ضرب من النبات٠ السفـُ : التهامُ الدواء ، والدقيـق ٠ الباقر : البقر ، البـوار : الهـلاك ٠ الشـكر : الشعر القصير بين الشعر الطويل ٠ هاجت : أثارت ٠ الصبـير : السحاب ٠ ارتشمت الأرض : بـدا نبتهـا ٠

وقد ذمَّ الورَل الطائي هذه العادة فقال في الحيوان ٤/٤٦٨ ، وثمار القلوب ، ص ٥٨٠ :

لا درَّ درُّ رجـال خـاب سعيهـم ... يستمطرون لدى الأزْمات بالعُشرِ
آجـاعـلٌ أنت بيقـوراً مسلّعـة ... ذريعـةً لـكَ بـين الله والمطـرِ

٦ ـ انظر معجم البلدان : ياقوت الحموي ، نشر دار صادر ، بيروت ٢/١٣٤ ٠

٧ ـ كتـاب الجزيرة السورية بـين الماضي والحاضر : اسكندر داود ، مطبعة الترقي ، ص ١٩٧ـ٢١٣ ٠

٨ ـ دراسات في الفلكلور الفلسطيني : عوض سعود عوض ، ط ١ ، ١٩٨٣ ، ص ١٣٣ ٠ ونجد مطابقة واسعة في أداء هذا الطقس مع اختلافات يسيرة ٠

٩ ـ نثبت هذه الاهزوجة من السماع والرواية الشفوية ٠

وبشيت : تصغير بشت ، وهي كلمة معرّبة ، تعني عباءة الصوف التي يرتديها الراعي شتاءً ٠ بلـّي : مـن ابتلَّ بالمطر ٠ ريّه ٠ صفة أي التي تروي بمطرها ٠ عبي : املائي ٠ الحواية ٠ البرك ، والغدران ٠ زعـلانة : غاضبة ٠ عانة : مدينة على الفرات ٠ يلـّله : دعاء معناه يا الله ٠ الحواوين : البهائم والدواب ٠ أم خنينة : كنية الشاة ٠ الطبشي : إناء للطعام ٠ الطاسة : وعاء للشرب ٠ الغربال : وعاء لفرز الحبوب ٠ الحفنة : مقدار لما يملأ الكفين ٠ وهو ههنا يدلُ على البخل والتقتير٠

١٠ـ حول مفهوم ربات الخصب يمكن العودة الى كتاب : مغامرة العقل الأولى : فراس سواح ، نشـر دار سومر ، ط ٦ ـ ص ٣١٩ ٠ وكذلك قاموس الآلهة والأساطير : رولينغ ، ترجمة محمد وحيد خياطة ، ص ٥٣ ٠

١١ـ لغز عشتار : فراس سواح ، نشر دار سومر ، ط ١ ، ١٩٨٥ ، ص ٢٤ ٠

١٢ـ سومر وأكـاد ، ص ٢١٢ ، ولغـز عشتار ص ٢٧ ، وكذلك: الأساطير والخرافات عند العرب: د. محمد عبدالمعين‌خان، دار الحداثة ، ط ٣ ، ص ١٣٢ .

١٣ـ لغز عشتار ، ص ١٠١ ، ونجد مفاجاة للالهة « بو » في قصة الحضارة : ول ديورانت ، ترجمـة زكي نجيب محمود ٣١/١ تصفها بالام التي شيدت مدينة الكش .

١٤ـ يمكن قراءة بعض هذه الترانيم والتوسلات في قصة الحضارة ٢١٥/١ ، ومغامرة العقل الأولى ، ص ٥٣ .

١٥ـ الفلكلور ما هو ؟ ، ص ١٣٦ .

١٦ـ الغصن الذهبي : فرايزر ١٠٨/١ نقلاً عن كتاب أدب الرحلات عند العرب في المشرق ، لمؤلفه علي محسن مال‌الله ، ص ٣٤٦ .

١٧ـ انظر هامش كتـاب « الفقه على المذاهب الأربعة » عبدالرحمن‌الجزري ، نشر المكتبة التجارية بمصر ، ص٣٦٢ .

١٨ـ قصة الحضارة ٣٤٥/١ . وفي صلاة سومرية نقرأ : « إن الضأن فداء للحم الآدميين ، به يفتدي الانسان حياته » ٢٩/١ . كما نقرأ في المصدر ذاته ٢٢٢/١ رقية بابلية تقـول : « الكبش فداء للانسان ، الكبش الذي يفتدي به حيـاتـه » .

١٩ـ لغز عشتار ، ص ٣١٥ .

٢٠ـ القرآن : سورة المائدة ، الآية ٢٧ .

ونجـد تفصيلات عـن قصـة قابيل وهابيل في منعطف المخيلة البشرية، صموئيل هنري هووك ، ترجمة صبحي حديدي، نشر دار الحوار ، ص ١٠٢ .

٢١ـ ملحمة كلكامش : ترجمة طـه باقر ، ص ٨٨ـ٨٩ .

٢٢ـ الفقـه على المذاهب الأربعة ، ص ٣٥٨ .

٢٣ـ هامش كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ، ص ٣٥٩ ، والزراب : التلال الصغيرة . مغيثاً : منقذاً . مريئاً : مريعاً، نافعاً . سحاً : عاماً غزيراً .

٢٤ـ هامش كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ، ص ٣٦٢ .

٢٥ـ رقص السماح فن غنائي ـ موسيقي تنسب الى الشيخ‌عبدالغني‌النابلسي، وقيل بل هو للشيخ أبي الوفاء المصري. وهو طقس اشتهرت به مدينـة حلب .

وحول ذلك يمكن العودة الى كتاب « السماح عند العرب » مجدي العقيلي ، ط ١ ، ٢٢٢/٥ـ٢٢٦ .

٢٦ـ٢٧ـ أوردنا هـذه الأهازيج من السماح . والقرقعة : الضجيج ، الرحى : أداة من حجر لجرش الحبوب ، جفلت : افزعت .

٢٨ـ عن علاقة قوس قزح بالنار والشيطان يمكن العودة الى كتاب : الأساطير والخرافات عند العرب ، ص ١٤٢ .

٢٩ـ الأساطير والخرافات عند العرب ، ص ١٤٢ .

